



قبل زهاء خمس عشرة سنة انتسبتُ إلى الدورة العلمية الصيفية المكثفة في المعهد الشرعي لطلاب العلوم الإسلامية (الأميّنة سابقاً)، وأنا يومئذ طالبُ في المرحلة الثانوية، وكان اسم الشيخ عبد القادر الأرناؤوط مُدرجاً في جداول الحِصَص المقرّرة، مدرباً لمادّتي الفقه ومصطلح الحديث، وقد سبقت شهرةُ الشيخ إلى أذني، قبل أن أبصره بمقليّ، فكنت أسمعُ من زملائي الطلّاب الثناء العطرَ عليه، وأنه أحد كبار علماء السنة في عصرنا.

رسمتُ للشيخ صورةً في نفسي، فكنتُ أتوقع أن أرى شيخاً تحفه أبهةُ المشيخة المصطنعة التي اتخذها بعض أشياخ عصراً، تراهم يمشون في زهو وعجب كالطّواويس، والناسُ متعلّقون بأذاليهم، يحيطون بهم من كلِّ جانب، يتسابقون إلى تقبيل الأيدي، والتمسّح بالثياب، والفوز بعبارة ثناء.

دخل علينا الشيخُ بتواضعٍ جمِّ، وجلس على كرسي التدريس، مرحباً بنا في بداية هذه الدورة الصيفية الجديدة بكلماتٍ تفيض رقةً وأنساً، يلهجة أبٌ غير شديد الحرّص على بنائه، كنتُ أصغي إلى كلماته العذبة الصادقة وأكاد أسمعُ معها وجيب قلبه، وأتأملُ في وجهه فأرى في قسماته أماراتِ الصدق والتقوى مُشعّةً باديه، زادت حُمرة وجهه جمالاً على جماله، وكانت عيناه

الزرقاوan تلتمعان ذكاءً كنجميَّن مضيئين أو جوهريَّين نادريَّين، وقد زاده الله بُسطةً في العلم والجسم، فكان ممتليًّا بالجسد، قويًّا البنية، كما امتلأ فقهًا وحكمةً وعلمًا، والله ل قد ملأت صورةُ الشِّيخ نفسيٌّ هبَّةً وتقديرًا وإجلالًا.

مَدَحْتُكَ بِالْحَقِّ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ *** وَمِنْ مِدَحِ الْأَقْوَامِ حَقٌّ وَبَاطِلٌ

لم أنقطع عن هذه الدورات العلميَّة الصيفيَّة سنتَيْ سِنِّين متتاليَّة، وكانت دروسُ الشِّيخ فيها أحبُ الدُّرُّوسِ إلَيَّ؛ لما فيها من فوائدٍ علميَّة، ونصائحٍ تربويَّة.

قرأنا عليه فيها غيرَ كتاب من كتب مصطلح الحديث، وبحقِّ لقد بهَرَنَا الشِّيخ بقوَّة حفظه وحضوره ذهنَه، وبخاصةً حفظه لمتون الأحاديث، ولوَّفيات رواة السنة.

وقد حبَّبَ إلينا الشِّيخ في دروسِ الفقه العملَ بالحديث الصَّحيح، وعدمِ التَّعصُّب لاجتهاداتِ الفُقَهَاء المخالفَة للأدلة الصحيحة الصريحة، وكذلك وجَّهَ أنظارنا إلى أهميَّة علم المصطلح، الذي يُعدُّ السُّبْلَ لتمييز السنة النبوية، ومعرفة صَحِّيتها من سَقِيمِها.

توَّقَّلتُ صَلَّتِي بالشِّيخ مع الأيام، وازدادتُ منه قربًا، وما كنت أشعرُ معه إلا أنني مع أبي الرحيم الشفيف، وما أكثرَ ما كنت أرتادُ مكتبه العامرة التي فتح أبوابها لتكون مثابةً لطلاب العلم، أبحثُ في كتبها عن بعض المسائل الشرعية، أقضي فيها ساعات، من بعد صلاة العصر إلى صلاة العشاء، أسأله عن كلِّ ما يعرض لي من مسائلٍ تعناصُ على، وأنتفُ بما يجيب به سائليه من ضُيُوف وطلاب علم ومستفتين، ومع اغترابي في السنوات الأخيرة عن بلدي دمشق، لم أنقطع عن شيخنا المفضال، فقد كان من أول من أسعى إلى لقائه في زيارتي لدمشق، وكذا كنتُ أحْرَصُ كلَّ الحرص على لقائه كلَّما زار الرياض.

جُمُهور سيرته العَطَرَة أَرْوَمَتُه واسمه :

ترجعُ أصول شيخنا إلى يوغسلافيا من بلاد البلقان، فقد ولد في قرية (فريلا/vrela) من إقليم كوسوفا، سنة 1347 هـ الموافق سنة 1928 م، وسمَّاه أبوه باسم: قَدْرِي، غير أنه أطلق على نفسه في أوائل شبابه اسم: عبد القادر الأرناؤوط، وبه اشتُهر بين الناس، وهو الاسمُ الذي يثبتُه على أغلفة كتبه وتحقيقاته، غير أن اسمَه بقي في الأوراق الرسمية: قَدْرِي بن صُوقَل الأرناؤوط.

أما نسبةُ العالِي فهو: قَدْرِي بن صُوقَل بن عَبْدُول بن سِنان بلاكي الأرناؤوط.

لم تُطُل إقامةُ الطفل قَدْرِي في موطنِه، فقد رحلَ به أهله وهو ابنُ ثلَاث سنين، (عام 1931 م)، مُهاجرين إلى الشام، فرارًا بدينهم من الهجمة الشُّيُوعيَّة الوحشية على بلادِهم، واستقرُّ بهم المقامُ بدمشق، فنشأ فيها وترعرع، واكتسبَ لسانَ أهلهما وعاداتِهم، فلا تحسَّبَه إلا دمشقيًّا عتيقًا أصيلاً، مع مُحافظته على لسانِ أجداده، فبقي مُجيِّدًا للغته الأولى الألبانية قراءةً وكتابةً وتحدُثًا.

دراسته وأشياخه:

انتسب شيخنا في أول دراسته الابتدائية إلى مدرسة الأدب الإسلامي، ودرس فيها سنةً واحدةً فقط، ثم تلقَّى سائرَ تعليمه الابتدائي بمدرسة الإسعاف الخيري، ونال منها الشهادة الابتدائية، وهي الشهادة الوحيدة من شهادات الدراسة النظامية التي حصلَّها، فلم يتابع بعدها في المدارس الرسمية، بل اختلفَ إلى حلقاتِ العلم في المساجد، يقرأُ على بعضِ العلماء والمشايخ،

وهو لا يزالُ في رِيَانِ الْفُتُوَّةِ وَطَرَاءَ الصِّبَا.

وَمِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَشَايخِ الَّذِينَ قَرَا عَلَيْهِمْ وَتَخَرَّجُ بَعْدَهُمْ:

- الشِّيخُ صَبِّحُى الْعَطَّارُ رَحْمَهُ اللَّهُ: وَهُوَ مَغْرِبِيُّ الْأَصْلِ، وَقَدْ كَانَ أَسْتَاذَهُ فِي مَدْرَسَةِ الإِسْعَافِ الْخَيْرِيِّ، قَرَا عَلَيْهِ خَتْمَةً مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مَعَ التَّجْوِيدِ وَالْإِتْقَانِ، وَأَفَادَ مِنْهُ كَثِيرًا فِي الْفَقْهِ الْحَنَفِيِّ.

- الشِّيخُ الْمُقرئُ مُحَمَّدُ فَاعِزُ الدِّيرَعَطَانِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ :

وَهُوَ تَلَمِيذُ شِيخِ قَرَاءِ الشَّامِ مُحَمَّدِ الْحُلوَانِيِّ الْكَبِيرِ - رَحْمَهُ اللَّهُ -، قَرَا عَلَيْهِ شِيخُنَا الْقُرْآنَ كَامِلًا مَعَ الْحَفْظِ بِالْمَدْرَسَةِ الْكَامِلِيَّةِ، وَكَانَ بِصَدَدِ جَمْعِ الْقَرَاءَتِ عَلَيْهِ، إِلَّا أَنَّهُ آثَرَ التَّفْرُغَ لِعِلْمِ الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ وَحِفْظِ السُّنْنَةِ النَّبِيَّيَّةِ، وَقَدْ كَانَ الشِّيخُ الدِّيرَعَطَانِيُّ شَدِيدَ الْإِعْجَابِ بِقِرَاءَةِ تَلَمِيذِهِ، لَا يَفْتَأِيُّ يَقُولُ لَهُ: إِنَّكَ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ بِالسَّلِيقَةِ.

- الشِّيخُ سُلَيْمَانُ غَاوِجيُّ الْأَلْبَانِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ: قَرَا عَلَيْهِ الشِّيخُ فِي عِلْمِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ.

- الشِّيخُ مُحَمَّدُ صَالِحُ الْفُرْقَوْرِ رَحْمَهُ اللَّهُ: وَهُوَ مَؤَسِّسُ جَمِيعَةِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَعْهُدِهَا الشَّرِعيِّ، وَقَدْ لَازَمَهُ الشِّيخُ زُهَاءُ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، وَتَخَرَّجَ بِهِ فِي الْفَقْهِ الْحَنَفِيِّ، وَالْتَّفْسِيرِ، وَعِلْمِ الْعَرَبِيَّةِ.

- وَقَرَا الشِّيخُ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَحَضَرَ دُرُوسَ كَثِيرٍ مِنَ الْمَشَايخِ فِي مَسْجِدِ بْنِي أَمِيَّةِ الْكَبِيرِ.

مهنته وعمله:

رَغْبَ وَالْدُّ شِيخَنَا - بَعْدِ تَخْرُجِ وَلَدِهِ فِي الْمَدْرَسَةِ الْابْدَائِيَّةِ - أَنْ يَكْتُسَ مَهْنَةً تَكُونُ لَهُ سِنِّاً وَأَمَانَةً، يَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى مُتَطَلِّبَاتِ الْحَيَاةِ فِي قَابِلِ الْأَيَّامِ، وَيَنْتَقِيُّ بِهَا صُرُوفَ الدَّهْرِ وَغَيْرَهُ، فَأَخْذَ بِيَدِهِ وَمَضَى بِهِ إِلَى حَيِّ (الْمِسْكِيَّةِ) الْقَرِيبِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْأَمْوَى، يَبْحَثُ لَهُ عَنْ مَهْنَةٍ شَرِيفَةٍ يَتَعَلَّمُهَا، وَبَيْنَا هَمَا يَبْحَثُانِ أَبْصَرَ الْأَبْ شِيخًا سَاعِيًّا ذَا لَحِيَّةِ سُودَاءِ وَعِمَامَةِ بِبِضَاءِ وَجْهَهُ، فَأَحْسَنَ الظَّنَّ بِهِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ وَلَدَهُ مَهْنَةً إِصْلَاحِ السَّاعَاتِ، وَلَمَّا عَرَفَ الرَّجُلُ أَنَّهُمَا غَرَبِيَّانِ، مَمَّنْ هَاجَرَ مِنْ كُوسُوفَا إِلَى الشَّامِ، اسْتَجَابَ لِطَلَبِهِمَا؛ حَبَّا وَكَرَامَةً.

ذَاكُ الشِّيخُ السَّاعِاتِيُّ اسْمُهُ: سَعِيدُ الْأَحْمَرِ التَّلِيُّ، وَكَانَ مُتَخَرِّجًا فِي الْأَزْهَرِ الشَّرِيفِ، وَقَدْ لَاحَظَ عَلَى شِيخَنَا حَبَّهُ لِلْعِلْمِ، وَتَطَلَّعَ إِلَى تَحْصِيلِهِ، فَرَأَى أَنْ يَخْتَبِرَ بِبَعْضِ الْعِلُومِ، فَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُسْمِعَهُ شَيْئًا مِنَ الْقُرْآنِ، فَقَرَأَ لَهُ آيَاتٍ مِنْهُ مَرْتَلَةً مَجَوَّدَةً، فَسُرَّ بِقِرَاءَتِهِ الْحَسَنَةِ الْمُتَقَنَّةِ، ثُمَّ اخْتَبَرَهُ فِي بَعْضِ أَبْوَابِ النَّحْوِ وَالصَّرْفِ، فَأَظَاهَرَ بِرَاءَةً وَمَعْرِفَةً، وَكَانَ الْوَقْتُ رَمَضَانُ فَسَأَلَهُ عَمَّنْ لَا يَجُبُ عَلَيْهِ صُومُ رَمَضَانَ، فَأَجَابَهُ بِبَيْتَيْنِ مِنَ النَّظَمِ كَانَ حَفَظَهُمَا مِنْ شِيخِ صَبِّحِيِّ الْعَطَّارِ فِي الْمَدْرَسَةِ، وَهُمَا:

وَعَوَارِضُ الصَّوْمِ الَّتِي قَدْ يُغَتَّرُ *** لِلْمَرءِ فِيهَا الْفِطْرُ تَسْعُ تُسْتَطَرُ
حَبَلٌ وَإِرْضَاعٌ وَإِكْرَاهٌ سَفَرٌ *** مَرَضٌ جَهَادٌ جُوعٌ عَطَشٌ كَبْرٌ

وَلَمْ يَكْتُفِ الشِّيخُ سَعِيدُ بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ، بَلْ طَلَبَ مِنْهُ تَفْسِيرَ الْبَيْتَيْنِ، وَلَمَّا أَجَابَهُ ابْتَهَجَ وَقَالَ: يَا بُنْيَيِّ، أَنْتَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ طَالِبَ عِلْمٍ، وَشَجَعَهُ عَلَى ذَلِكَ، وَمَضَى بِهِ إِلَى جَامِعِ بْنِي أَمِيَّةِ، وَضَمَّهُ إِلَى حَلْقَةِ الشِّيخِ مُحَمَّدِ صَالِحِ الْفُرْقَوْرِ، ثُمَّ مَضَى بِهِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ الْكَامِلِيَّةِ؛ لِيَقْرَأُ عَلَى الشِّيخِ مُحَمَّدِ فَاعِزِ الدِّيرَعَطَانِيِّ.

لَزَمَ شِيخُنَا مَعِلِّمَهُ سَعِيدًا الْأَحْمَرَ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ مَهْنَتَهُ، وَيَقْرَأُ عَلَيْهِ فِي الْفَقْهِ وَالْلُّغَةِ، وَلَمْ يَنْقُطِعْ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ عَنْ حَلَّقَاتِ الْعِلْمِ، يَحْضُرُهَا بَعْدَ صَلَةِ الْفَجْرِ، وَعَقِبَ صَلَاتِيِّ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ. وَمَعَ اِنْصِرَامِ خَمْسِ سَنَوَاتٍ مِنَ الْمُواظِبَةِ افْتَتَحَ شِيخُنَا لِنَفْسِهِ مَحَلًّا لِلْسَّاعَاتِ، بَعْدَ أَنْ مَهَرَ فِي إِصْلَاحِهَا، وَحَذَقَ صَنَعَتَهَا.

طلبه لعلم الحديث وتحصيله:

كان المشايخ المدرسون في الجامع الأموي كثيري الاعتماد على كتاب الحافظ السيوطي ((الجامع الصغير)), يرددون أحاديثه ويستشهدون بها، وقد حُبِّب إلى شيخنا الرجوع إلى كتاب ((فيض القدير بشرح الجامع الصغير)) للمناوي، يراجع فيه أحكامه على الأحاديث التي أوردها السيوطي، وقد أحزنَ الشيخ وأمضَه ما كان يراه من كثرة استشهاد المشايخ والخطباء بالأحاديث الضَّعيفة والمنكَّرة والموضعَة، ومن هنا تحفَّز لحفظ الأحاديث الصَّحيحة، ونشرها وإشهارها.

كان صحيحُ الإمام مسلم أولَ كتاب من كتب السنة يقرؤه، ثم قرأً بعده صحيح البخاري، والسنن الأربع.

وقد كَلَّفَ بحفظ السنة النبوية، فكان يَدِنه وَجِيراه حفظُ عدد من الأحاديث الصَّحيحة كلَّ يوم، يُعينه على ذلك ما أكرمه الله به من هُمَّةٍ عالَيةٍ، وحافظَةٍ واعِيةٍ، ومَضَاءَ عَقْلٍ، ونَفاذَ بَصِيرَةٍ، وكان حِصَادُ ذلك كُلِّهِ المَنْزَلَةُ السَّامِيَّةُ التي تَبَوَّأَهَا بينَ أَهْلِ الْعِلْمِ عَامَّةً، وأَهْلِ الْحَدِيثِ خَاصَّةً، حتَّى غَدَأَمَّةً في الحفظ والرواية غير مزاحَمٍ، يَقُولُ لِهِ بِذَلِكَ الْمُخَالَفُ قَبْلَ الْمُوَافَقِ، وقد زادَت محفوظاته من الأحاديث على عشرة آلاف حديث.

ومما تميَّز به شيخنا أيضًا: حفظُ أَسْمَاءِ رُوَاةِ السَّنَّةِ وَأَسْبَابِهِمْ، وحفظُ تواريَخِ وَفَيَاتِهِمْ، وكان في ذلك آيَةٌ قليلَ النَّظِيرِ.

وإن تعجبَ فعَجَبٌ ما تراهُ من استحضارِ الشَّيخِ للأحاديث النبوية، وسرعته في استخراجِها من مَظاہِرِها، حتَّى لَتَخَالُ السَّنَّةُ ماثلَةً بَيْنَ ناظريهِ، وما كان ليتأتَّى لِهِ هَذَا لَوْلَا إِدْمَانُهُ الْنَّظرَ فِي كِتَابِ السَّنَّةِ الشَّرِيفَةِ وَكَثْرَةِ مَدَارِسِهَا.

عملُهُ فِي الْبَحْثِ الْعَلْمِيِّ وَتَحْقِيقِ التِّرَاثِ :

وكان من صُنْعِ الله به أن سَنَّى له العملَ فيما يرْغَبُ فيه ويَحْرِصُ عليه، فقد تركَ العملَ في مهنةِ الساعاتِ وانضمَّ - سنة 1377 هـ الموافق سنة 1957 م - إلى فريق البَحْثِ الْعَلْمِيِّ وتحقيقِ التِّرَاثِ بالمكتب الإسلامي لفضيلةِ شيخنا المجاهد زهير الشَّاوَيْش حفظَ الله مُهْجَّةَهُ، إلى جانبَ كَوَكَبةَ من أعلامِ السَّنَّةِ والْحَدِيثِ وَالْعِلْمِ فِي هَذَا العَصْرِ، مِنْهُمْ: الشَّيخُ مُحَمَّدُ نَاصِرُ الدِّينِ الْأَلْبَانِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ، وَالشَّيخُ شُعْبُ الْأَرْنَاؤُوطَ حَفَظَهُ اللَّهُ، وَشِيخُنَا الْمَرْبِيُّ الدَّكْتُورُ مُحَمَّدُ بْنُ لَطْفِيِ الصِّبَاغِ أَنْسَالَهُ فِي الْخَيْرِ أَجْلَهُ، وَالشَّيخُ عَبْدُ الْفَادِرِ الْحَتَّاوِيِّ الدُّوْمِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ، وَيَظْنُ بَعْضُ طَلَابِ الْعِلْمِ أَنَّ الشَّيخَ عَبْدَ الْفَادِرِ شَقِيقُ الْلَّشِيقَ شُعْبِيُّ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، بل هَمَا أَخْوَانُ فِي اللَّهِ، وَزَمِيلَا دراسة، وَعَمَل، وَدَعْوة.

استمرَّ شيخنا في عمله هذا زُهْاءَ عَشْرَ سَنَوَاتٍ كَانَتْ مِنْ أَخْصَبِ سِنِّ عُمُرِهِ، أَفَادَ مِنْهَا إِفَادَةً كَبِيرَةً فِي مَعْرِفَةِ كُتُبِ تراثِنا الإِسْلَامِيِّ فِي شَتَّى عِلْمِهِ وَفَنْوَنِهِ، وَأَحْكَمَ فِيهَا صَنْعَةَ التَّحْقِيقِ الْعَلْمِيِّ إِحْكَاماً، وَاضْطَلَّعَ فِيهَا بِتَحْقِيقِ عَدَدٍ كَبِيرٍ مِنَ الْكُتُبِ الْعَلْمِيَّةِ الْشَّرِيعَيَّةِ وَمَرَاجِعَهَا، مُنْفَرِداً وَمُشَارِكاً.

فَمَمَّا شارَكَ فِي تَحْقِيقِ الشَّيخِ الْأَلْبَانِيِّ: ((مشكاة المصابيح)) للتبّريزي، أما الشَّيخُ شُعْبِيُّ فَقد شارَكَهُ فِي تَحْقِيقِ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنَ الْكُتُبِ، مِنْهَا: ((روضة الطالبين)) لِإِلَامَ الْتَّوَوِيِّ، فِي الْفَقْهِ الشَّافِعِيِّ، وَ((الكافِي)) لِإِلَامِ مَوْفَقِ الدِّينِ بْنِ قُدَّامَةِ الْمَقْدِسِيِّ، فِي الْفَقْهِ الْحَنْبَلِيِّ، وَ((زادُ الْمَسِيرِ فِي عِلْمِ التَّفْسِيرِ)) لِإِلَامِ ابْنِ الْجَوْزِيِّ.

وَتَوَلََّ الشَّيخُ إِدَارَةَ المَكْتَبِ الإِسْلَامِيِّ مَدَّةً مِنَ الزَّمَنِ، فِي إِبَانِ غِيَابِ الشَّيخِ زَهِيرٍ عَنْ سُورِيَّةِ؛ لِظُرُوفِ قَاهِرَةٍ. وَبَقَى الشَّيخُ مَتَعَاوِنًا مَعَ المَكْتَبِ الإِسْلَامِيِّ حَتَّى وَافَتْهُ مُنِيَّتُهُ، وَكَانَ مِنْ آخِرِ مَا عَمَلَهُ لِلْمَكْتَبِ: إِعَادَةُ تَحْقِيقِ ((شَرْحُ ثُلَاثَيَّاتِ إِلَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبِلِ)) لِلْسَّفَارِينِيِّ.

نَتْاجُهُ الْعَلْمِيُّ :

حُبِّبَ إِلَى شيخنا نَشْرُ تِرَاثُ أَسْلَافِ أَمَّنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ الصَّالِحِينَ الْعَالَمِينَ، وَتَحْقِيقُهُ، وَالْعُنَيْفَةُ بِهِ، وَكَانَ يَفْضِّلُ تَحْقِيقَ التِّرَاثِ عَلَى التَّأْلِيفِ، وَكَانَ فِي تَحْقِيقِهِ صَاحِبَ رِسَالَةٍ، يَرَى أَنَّ غَايَةَ الْمَحْقِقِ فِي عَمَلِهِ هِيَ إِخْرَاجُ نَصِّ صَحِيفِ سَلِيمٍ، خَالٍِ مِنْ شَوَائِبِ التَّصْحِيفِ وَالتَّحْرِيفِ وَالسَّقْطِ، وَأَنَّ أَوْلَى مَا عَلَى الْمَحْقِقِ الْقِيَامُ بِهِ: تَخْرِيجُ الأَحَادِيثِ الْوَارَدةِ فِي الْكِتَابِ، وَالْحُكْمُ عَلَيْهَا صَحَّةٌ

وضعَفًا، أو نقلُ أحكامٍ نُقادَ الحديثِ عليها؛ لما في ذلك من نصْح لطلَّابِ العلمِ، ولجمهورِ المسلمين؛ لئلا يغترَّ امرؤٌ بحديثٍ تتناقلهُ ألسنةُ الخطباءِ، ورسولُ اللهِ منهُ بريءٌ.

وقد أكثَرَ شيخُنا من التحقيق، حتى أربَت كتبَ المحققَة على خمسينَ كتاباً، ومن أهُم الكُتب التي أخرجها زِيادةً على ما تقدَّمَ: ((جَامِعُ الْأَصْوَلِ فِي أَحَادِيثِ الرَّسُولِ)) لابن الأثيرِ الجَزَرِيِّ، في خمسة عشرَ مجلدًا، و((مختصرٌ مِنْهَاجِ الْفَاسِدِينَ)), و((لمَعَةُ الاعتقادِ)), و((كتابُ التَّوَابِينَ)) لابن قُدَّامَةِ المقدِّسيِّ، و((الأنذارِ)), و((التَّبِيَانُ فِي آدَابِ حَمَّةِ الْقُرْآنِ)) للنَّوَوِيِّ، و((مختصرٌ شُعَبِ الإِيمَانِ)) للبيهقيِّ، و((الْحِكْمَةُ الْجَدِيرَةُ بِالإِذَاعَةِ)) لابن رجبِ الحنبليِّ، و((فتحُ الْمُجِيدِ شَرْحَ كِتابِ التَّوْحِيدِ)) لعبدِ الرَّحْمَنِ بنِ حَسْنِ آلِ الشِّيخِ، و((الْإِذَاعَةُ لِمَا كَانَ وَيَكُونُ بَيْنَ يَدِيِ السَّاعَةِ)), و((يَقْظَةُ أُولَى الاعتبارِ بِذِكْرِ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ)) لصَدِيقِ حَسْنِ خَانِ، و((كِفَائِيَّةُ الْأَخْيَارِ فِي حَلِّ غَایَةِ الْإِخْتِصارِ)) للحِصْنِيِّ، و((الفِتْنَةُ وَالْمَلَاحِمُ)), و((شَمَائِلُ الرَّسُولِ)) لابنِ كَثِيرٍ، و((السُّنْنَةُ وَالْمُبَدَّعَاتِ)) للفُشَيْريِّ.

وكان للشيخ عنايةٌ خاصةً بكتبٍ شيخيَّ الإسلام ابن تيميةٍ وتلميذه ابن القِيمِ، فمما أخرجه لابن تيميةٍ: ((رفعُ الملام عن الأنْمَةِ الْأَعْلَامِ)), و((المسائلُ الْمَارِدِينَ)), و((قَاعِدَةُ جَلَيلَةٍ فِي التَّوَسُّلِ وَالْوَسِيلَةِ)), و((الْفُرْقَانُ بَيْنُ أُولَيَاءِ الرَّحْمَنِ وَأُولَيَاءِ الشَّيْطَانِ)), و((الْكَلْمُ الطَّيِّبُ)).

ومما أخرجه لابن القِيمِ:

((زادُ المعادِ فِي هَدِيَ خَيْرِ الْعِبَادِ)) بالاشتراك مع الشيخ شُعَيْبَ، و((جلَاءُ الْأَفْهَامِ)), و((الوايْلُ الصَّيِّبِ)), و((الْفُرُوسِيَّةِ)), و((عِدَةُ الصَّابِرِينَ)), و((فتاوِيَ رَسُولِ اللهِ ۲)).

أما التَّأْلِيفُ فقد تقدَّمَ الإِلَمَاعُ إِلَى عَدَمِ اهتمامِ الشِّيخِ به، فلم يُؤْلِفْ سُوَى رسالَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ، الأولى بعنوانٍ: ((الْوَجِيزُ فِي مَنهَجِ السَّلَفِ الصَّالِحِ)), وهي على وجَازَتِها عظيمةُ النَّفعِ في بيانِ الفرقِ بينَ المُقْلِدِ والمُتَّبعِ والمُجَاهِدِ، وبيانِ وجوبِ اِتِّبَاعِ الكتابِ والسنَّةِ بمنْهَجِ سَلَفِنَا الصَّالِحِ منْ أهْلِ الْقُرُونِ الْثَّلَاثَةِ الْأُولَى، التي شَهَدَ لَهَا رَسُولُ اللهِ ۲ بِالْخَيْرِيَّةِ. والرسالةُ الأخْرى بعنوانٍ: ((وصَايا نبوَيَّةٍ)), اشتَملَتْ عَلَى خمسةِ أحَادِيثٍ نبوَيَّةٍ شَرِيفَةٍ، اختارَهَا الشِّيخُ وَشَرَحَهَا شَرْحًا موْجَزاً مُفْعِداً، وهي من جَوَامِعِ كَلْمَهٖ ۲، يوصي فيها أمَّهُ بما فيه فلاحُهُمْ ونجاحُهُمْ فِي الدَّارَيْنِ.

عملُهُ فِي التَّعْلِيمِ وَالدَّعْوَةِ :

سلَّحَ الشِّيخُ مِنْ عُمْرِهِ المبارِكِ أكثَرَهُ بَيْنَ المَنَابِرِ وَالْمَحَابِرِ؛ مُدرِّسًا وَمُحاضِرًا وَخطيبًا، وَكَانَ تَوْلِيَ الْخَطَابَةَ وَهُوَ فِي أَوَّلِ العِقْدِ الثَّالِثِ، نَحْوَ سَنَةِ 1369 هـ الموافقِ سنةِ 1948 م، فِي جَامِعِ الْأَرْنَاؤُوتِ بِحِيِّ الْدِيوَانِيَّةِ، حِيثُ اسْتَوْطَنَتِ الأَسْرَ الْبِيُوْغُسْلَافِيَّةِ الْمَهَاجِرَةِ، وَكَانَ الشِّيخُ الْأَلْبَانِيُّ رَحْمَهُ اللَّهُ مَمْنُونٌ يَشَهُدُ خُطْبَتَهُ وَيَصْلِي خَلْفَهُ، وَقَدْ اسْتَمَرَ فِي خَطَابَةِ هَذَا الْجَامِعِ نَحْوَ خَمْسَ عَشَرَةِ سَنَةٍ، ثُمَّ انتَقَلَ إِلَى جَامِعِ عَمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَكَانَ سُعِيَ فِي إِنْشَائِهِ مَعَ بَعْضِ أَهْلِ الْخَيْرِ فِي حِيِّ الْقَدْمِ جَنُوبِيِّ دَمْشِقَ، وَبَقَيَ فِيهِ عِدْدًا كَامِلًا، ثُمَّ كُلِّفَ بِالْخَطَابَةِ بِجَامِعِ الْإِصْلَاحِ بِحِيِّ الدَّحَّالِيِّ، وَدَامَتْ خُطْبَتُهُ فِي أَكْثَرِ مِنْ عَشَرَ سَنِينَ، لِيَنْتَقِلَ بَعْدَهُ إِلَى حِيِّ الْمِزَّةِ غَرْبِيِّ دَمْشِقَ خَطِيبًا لِجَامِعِ الْمُحَمَّدِيِّ، الَّذِي اسْتَقْطَبَ آلَافَ الْمُصْلِيِّنَ، جَلَّهُمْ مِنْ شَبَابِ الصَّحَوةِ وَطَلَّابِ الْعِلْمِ، وَكَانَ لِلشِّيخِ درَسٌ عَامٌ يَعْدُهُ بَعْدَ كُلِّ خُطْبَةٍ، يَجِيبُ فِيهِ عَنْ أَسْئَلَةِ الْمُسْتَفْتَينِ، وَقَدْ كَنْتُ مَمْنُونُ شَرْفَهُمُ اللَّهِ تَعَالَى بِحُضُورِ تَلْكَ الْخُطَبِ وَالدُّرُوسِ وَالانتِفَاعِ بِهَا سَنَوَاتٍ، وَمَا زَالَ الشِّيخُ خَطِيبًا لِجَامِعِ الْمُحَمَّدِيِّ حَتَّى صَدَرَ الْقَارُُ بِعَزْلِهِ عَنِ الْخَطَابَةِ، بَعْدَ ثَمَانِيَّ سَنَوَاتٍ قَضَاهَا فِيهِ، وَذَلِكَ سَنَةُ 1415 هـ، وَأَدْعُ الْحَدِيثَ لِشِيخِنَا يُخْبِرُنَا بِقَصَّةٍ مَنْعِهِ مِنِ الْخَطَابَةِ، يَقُولُ: أَقْيَتُ فِي رَأْسِ السَّنَةِ الْمِيلَادِيَّةِ خُطْبَةً قَوِيَّةً، نَصَحَّتْ فِيهَا شَبَابُ الْمُسْلِمِينَ بِعَدْ تَقْلِيدِ النَّصَارَى، وَتَرَكَ مُجَارَاتِهِمْ فِي اِحْتِفالَتِهِمْ، وَقَدْ كَانَ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ - وَلَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ - يُشارِكُونَ النَّصَارَى فِي عِيَدهِمْ، وَيَشَرِّبُونَ مَعْهُمُ الْخَمْرَ، وَيُرَاقِصُونَ نِسَاءَهُمْ .. فَنَادَيْتُهُمْ مِنْ عَلَى الْمِنَارِ: أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وَذَرُوا مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ مُتَابِعَةِ النَّصَارَى، وَأَوْرَدُتُ

في ذلك بعض الآيات فيهم، كقوله تعالى: {وَلَنْ تُرْضِيَ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَبَعَ مِلَّتَهُمْ}، ومن هنا قيل: إن هذا الشيخ يُثير النعرات الطائفية ويَدُعُوا إليها، وكان قرار المنع.

كان الشيخ يعطي خطبه حقها من التحضر وحسن الإلقاء؛ أداءً لأمانة المنبر التي ضيّعها اليوم كثير من الخطباء، وأداءً لحق المستمعين الذين قدموه إلى جامعه من كل صوب، وكان رحمة الله خطيباً مفوحاً مصقعاً، أمّاراً بالمعروف نهاء عن المنكر، صادرًا في ذلك عن علم غزير، وفك سديد، وبيان مُشرق، وحمىّة الدين الله جيّاشة.

وقد أحسن الله إليه بأن وَهَّبَهُ قُدرةً على التأثير عظيمة، فإذا ما انتطلق في خطبته رأيت الناس قد تعلقت به أبصارهم، وكان على رؤوسهم الطير.

وكان الغالب على خطب شيخنا أن يبدأها بسرد حديث نبوى شريف، مع ذكر الصحابي راوي الحديث، والأئمة المخرجين، ثم يترجم بإجازة الصحابي والمخرجين، ثم يشرع في تفسير الحديث، واستنباط الفوائد والعبر منه، يُدير الخطبة كلها عليه، مستشهاداً بعشرات الآيات والأحاديث الداعمة للفكرة، لا يذكر حديثاً منها إلا مُخرجًا.

أما التعليم والتدرис فقد ولَجَ ميدانه في وقت مبكر أيضاً، حين انتدب للتدرис في المدرسة الابتدائية التي تخرج فيها، وهي مدرسة الإسعاف الخيري، في نحو سنة 1373هـ، وقد أنيط به تدريس القرآن والتجويد وبعض العلوم الأخرى، وفيها تجد لقاوه بشيخه صبحي العطار، الذي فرح فرحاً عظيماً بتلميذ الأمس الصغير، الذي غالباً زميله في التدرис.

وفي سنة 1381هـ تحول الشيخ إلى المعهد العربي الإسلامي، مدرساً للقرآن والفقه، واستمر فيه زمناً، ثم انتقل إلى معهد الأمينية، الذي سُمي فيما بعد: المعهد الشرعي لطلاب العلوم الإسلامية، ثم أطلق عليه اسم: معهد الشيخ بدر الدين الحسني، وبقي يعلم فيه إلى ما قبل سنتين تقريباً، وكان الشيخ من المدرسین في دوراته الصيفية المكتفة عظيم النفع، وقد كنت من المنتسبين إليها كما ذكرت في بداية المقالة، وقرأنا على الشيخ فيها عدداً من الكتب، وفي الفقه الشافعي درسنا كتاب الإمام الحصني ((كتفایة الأخیار فی حلٍ غایة الاختصار))، وفي علم مُصطلاح الحديث قرأنا عليه كتاب الإمام النووي ((إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلق))، و((الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث)) للشيخ أحمد شاكر، و((قواعد التحديد)) لجمال الدين الفاسمي، و((تدريب الرأوي)) للسيوطى، و((شرح ثلاثيات الإمام أحمد)) للسفاريني.

وكان للشيخ رحلات دعوية كثيرة إلى عدد من دول الخليج، يُلقي فيها المحاضرات ويلتقي أهل العلم والفضل، إضافة إلى رحلاته المتتابعة إلى بلده كوسوفا وما حولها؛ لدعوه أهالي تلك البلاد إلى الدين القويم، وتبصيرهم بأحكام الإسلام العظيم، مستفيداً من إتقانه للغة الألبانية، وكان انتدبه للسفر إليها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز مفتى المملكة العربية السعودية رحمة الله تعالى، وقد كانت تربطه بالشيخ علاقة من الود والمحبة والتقدير وثيقة.

فکرُهُ وَمَنْهَجُهُ :

لقد كان من نعم الله السّابقة على شيخنا أن هيأ له في مطلع شبابه رجلاً كريماً خاللاً حميد المناقب، ذا شخصية فذة في العلم والأخلاق، لا تحسنه إلا من جيل الصحابة الكرام، ممن تتمذّل سيدُخلق، تأثر به الزمان فعاش بيننا؛ ليكون مثالاً يُقتَفِي، وقدوة تتبع، إنه فضيلة شيخنا المعمر بقيّة السلف الصالح العلامة المربي عبد الرحمن الباني، حفظه الله تعالى وأمّنه، وببارك في عمره = هيأ الله ليكون ناصحاً أميناً للشاب عبد القادر الأرناؤوط، يأخذ بيده ويدله على الجادة اللأخية الآمنة، وقد بهرت شخصية الباني فقيتنا، فأقبل عليه ينهلُ من حُلْقه الرَّضي، ومن علمه النافع، وما أكثر ما سمعتُ - وسمع إخواني - شيخنا الأرناؤوط يُثني على العلامة الباني، ويرجع إليه الفضل، بعد فضل الله سبحانه، في تعريفه بمنهج السلف الصالح، وبالتفكير السلفي النقى، ولنصفع إليه يُثبّتنا خبراً، يقول: كنتُ في شبابي خطيباً مقولاً، أعطى المنبر وأخطب الناس

بحماسة واندفاع، يكاد المسجد يَزَلِّزُلُ من قُوَّةٍ خُطْبَتِي وارتفاع صَوْتِي، وكنَتْ حينَهَا أرتدي عِمامَةً عالِيَّةً كالأبراج، وجُبَّةً سابغَةً أكمامُها كالأخْرَاج، فكانت نفسي تخدَعْنِي وتُؤْسُسُ إلَيْيَ بَأْنَ لَيْسَ عَلَى الْأَرْضِ مثْلِي، وحينما أَفْرَغْتُ أَنْزَلَ من عَلَى الْمِنْبَرِ وشُعُورِي كَمَنْ خَرَجَ مِنْ مَعرِكَةِ ضَارِيَةِ غَالِبًا مُنْتَصِرًا، وَكَانَ يُقْبَلُ إلَيْيَ بَعْدَ الصَّلَاةِ رَجُلٌ مَهَذَّبٌ وَدِيعٌ، يَسِّلِمُ عَلَيَّ بَابِسَامَةِ عَذْبَةِ آسِرَةٍ، وَيُثْنِي عَلَيَّ وَعَلَى خُطْبَتِي، بِعِبارَاتِ تَمَلُّنِي نَفْسِي سَعَادَةً وَغَبَطَةً، ثُمَّ كَانَ يَسْتَأْنُنِي فِي إِبْدَاءِ بَعْضِ الْمَلَاحِظَاتِ، بِأَسْلُوبٍ فِي غَايَةِ الرِّقَّةِ، فَكَنَتْ أَرْحَبُ بِمَلَاحِظَاتِهِ، وَأَفْتَحَ لَهَا قَلْبِي قَبْلَ أَذْنِي، فَيَقُولُ لِي: يَا بُنَيَّ، بَارِكُ اللَّهُ فِيكَ، وَجَزَاكَ خَيْرًا، خُطْبُكَ رائِعَةٌ مُمْتَازَةٌ، وَلَكُنْ لِيَتَكَ لَمْ تَسْتَشَهِدْ بِالْحَدِيثِ الْفُلَانِيِّ، فَإِنَّهُ مَوْضِعٌ، وَلَا يَنْبَغِي يَا ولَدِي الْإِسْتَشَهَادُ بِمَا لَا يَصْحُّ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ، وَقَدْ وَرَدَ عَنِ رَسُولِنَا فِي مَعْنَاهِ أَحَادِيثُ صَحِيحَةٍ يَحْسُنُ الْإِسْتَشَهَادُ بِهَا، مِنْهَا ... وَيَذْكُرُ لِي بَعْضَهَا، وَهَذَا كَانَ بَعْدَ كُلِّ خُطْبَةٍ يُسْدِي إِلَيْيَ نِصَائِحَ ذَهْبَيَّةً، يَنْهَايِي فِيهَا عَنْ بَدْعَةٍ كَنْتُ بِهَا جَاهِلًا، أَوْ يَلْفَتُنِي إِلَيْ سُنَّةَ مَهْجُورَةَ كَنْتُ عَنْهَا غَافِلًا، كُلُّ ذَلِكَ يَقْدِمُهُ بِتَوَاضُعٍ جَمَّ، يُجْبِرُنِي مَعَهُ عَلَى الْإِسْتِجَابَةِ، عَنْ رِضَا وَسَعَادَةٍ، وَلِسَانِي يَلْهُجُ بِالْدُعَاءِ لَهُ، وَالشُّكْرُ لِصَنِيعِهِ، وَلَقَدْ كَانَ لِي فِي أَسْلُوبِهِ الْحَكِيمُ أَسْوَةً حَسَنَةً، جَزَاهُ اللَّهُ عَلَيْ خَيْرَ الْجَزَاءِ.

قلَتُ: وَلَعِلَّ الشَّيْخَ الْبَانِيَ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَى كُتُبِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَرَغْبَةِ فِيهَا، حَتَّى اسْتَحَمَ حَبُّ شَيْخِ الْإِسْلَامِ مِنْ قَبْلِهِ، وَارْتَضَى طَرِيقَتِهِ الْقَوِيمَةَ، وَمَنَهَجَهُ الْحَقُّ، دِيَنًا يَعْبُدُ بِهِ رَبَّهُ، وَيَزَدِكُفُّ بِهِ مِنْ رَضْوَانِهِ، وَقَدْ دَفَعَ ثُمَنَ حَبِّهِ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ - وَمَطَاعَةُ كُتُبِهِ وَكُتُبِ تَلْمِيذهِ أَبْنَ الْقَيْمِ - غَالِبًا، فَلَمْ يَكُنْ يَدْرِي يَوْمَ ذَاكَ أَنَّ النَّظَرَ فِي كُتُبِ الشَّيْخَيْنِ جَرِيمَةً لَا يَغْفِرُهَا مَشَايخُ عَصْرِهِ - الَّذِينَ نَشَوْوا فِي أَعْطَافِ التَّصَوُّفِ، وَرَضَّاعُوا مَعَهُ الْعَصَبَيَّةَ وَالْتَّقْلِيدَ وَالْجُمُودَ - وَلَا بَدَّ مَعَهَا مِنْ مُحاكَمَةٍ وَعُقُوبَةٍ، وَحَقَّ حُكْمُ شِيخِنَا لِقْرَاءَتِهِ كِتَابَ ((الْوَابِلُ الصَّيْبِ)) لِابْنِ الْقَيْمِ، وَصَنَرَ الْحُكْمُ بِطَرَدِهِ مِنْ حَلْقَةِ شِيخِ الْفُرْفُورِ؛ جَزَاءً وِفَاقًا !! وَطَرَدَ مَعَهُ الشَّيْخَ شُعَيْبَ؛ إِذَا كَانَ رَفِيقَهُ فِيهَا.

وَيَتَلَخَّصُ فَكُرُّ شِيخِنَا وَمَنَهَجُهُ: بِإِتَّبَاعِ سَلْفِ الْأَمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْتَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءِ الْعَالَمِينَ رَضْوَانَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَاقْتِنَاءِ خُطَاطِهِمْ، وَالنَّسِيجِ عَلَى نَوْلِهِمْ، فِي التَّمَسُّكِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ الصَّحِيحَةِ، وَالْعَمَلِ بِمُفَقَّضَاهُمَا.

وَمِنْ تَمَامِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ أَوْتَيَ فَطْرَةً فِي طَلَبِ الْعِلْمِ سَلِيمَةً، تَدْعُوهُ إِلَى الْبَحْثِ عَنِ الْحَقِّ، وَالْحِرْصِ عَلَى الصَّوَابِ، مِنْ غَيْرِ تَقْدِيسٍ لِلأَشْخَاصِ، أَوْ تَعَصُّبٍ لِرَأْيِ إِمَامٍ أَوْ فَقِيهٍ، أَيَّاً كَانَتْ مَنْزَلَتُهُ فِي الْعِلْمِ، أَوْ مَكَانَتُهُ فِي الْفَهْمِ، رَائِدُهُ فِي ذَلِكَ قَوْلُ الْإِمَامِ مَالِكٍ: ((كُلُّ يَؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتَرَكُ إِلَّا الْمَعْصُومُ ٢)).

شَمَائِلُهُ وَسَجَایَاهُ:

لِلْقَوْلِ فِي أَحْلَاقِ شِيخِنَا وَنُعْوَتِهِ أَفْقُرُ رَحْبُ وَفَضَاءُ وَاسِعٌ، وَحَسِبُكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ مِنْ عَرَفَهُ مِنْ قُرْبٍ، وَاتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِهِ، رَاهُ صُورَةً صَادِقَةً، وَأَنْمُونَجًا فَذًا، لَمَّا كَانَ عَلَيْهِ سَلْفُ الْأَمَّةِ؛ رَفْعَةَ خُلُقٍ، وَجَمَالَ عِشَرَةَ، وَلِينَ جَانِبٍ. وَلَا غَرُوْرٌ، فَقَدْ عَاشَ حِيَاتَهُ بِصُحْبَةِ سِيرَةِ سَيِّدِ الْخَلْقِ ٢، وَسِيرَ أَصْحَابِهِ شُمُوسِ الْهِدَايَةِ رُضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِمْ، وَتَحَلَّ بِشَمَائِلِهِمْ، وَإِنَّا لَرَجُوْلَهُ أَنْ يَكُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مَجَلسًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ٢؛ لِتَحْقِقَ أَسْبَابَ ذَلِكَ فِيهِ، فَقَدْ كَانَ دَمِثُ الْأَخْلَاقِ، مَوْطِئًا لِلْأَكْنَافِ، يَأْلَفُ النَّاسَ وَيَأْلَفُونَهُ، وَكَانَ يَرْبِّ العَزَّةِ تَبَارِكُ وَتَعَالَى قَدْ نَادَى فِي أَهْلِ السَّمَاوَاتِ: إِنِّي قَدْ أَحَبَّبْتُ عَبْدِي عَبْدَ الْقَادِرِ فَأَحَبُّهُ، فَكَانَ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. فَوَاللَّهِ، لَا أَعْرِفُ رَجُلًا اجْتَمَعَتْ عَلَى مُحِبَّتِهِ الْقُلُوبُ، وَائْتَلَفَتْ عَلَى مُوَدَّتِهِ النُّفُوسُ، كَالشَّيْخِ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى.

كَانَ مِلْءُ الْعَيْنِ خُلُقًا عَالِيًّا *** وَمُرْوَءَاتٍ وَفَضْلًا وَوَفَا

جَمِيعَ الْأَخْلَاقِ وَالْعِلْمِ مَعًا *** فَهُمَا فِي بُرْدَيِّهِ ائْتَلَافًا

وَهُوَ إِلَى هَذَا شَدِيدٌ فِي الْحَقِّ، لَا يُمَارِي فِيهِ وَلَا يُدَارِي، بَلْ يَصْدُعُ بِالنَّصْحِ، غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا مُتَرَدِّدٍ، وَإِذَا مَا انْتَهَكَتْ حُرْمَةُ مِنْ

حرُم الله، تراه كالبركان ثائراً فائراً، يكاد يتميّز من الحق والغَيْظ، يقول ما يُرضي ربِّه، ولا يخافُ في الله لومة لائم. وكان فيه شُموخٌ وأنفةٌ بيته، وعزَّة بالله ودينه عظيمة، يمُكُّ النفاق والمنافقين، ويشنأ طرائقهم الملتوية وتسلُّقهم على أكتاف الآخرين؛ في سبيل تحقيق مَنافعِهم الخَسيسة، والفوز بِما رِبِّهم الذَّمِيمة.

وكان الشيخُ رحمة الله عَفَ اللسان، واسع الصدر، حَلِيمًا، لا يغتاب أحداً، ولا يُحبُّ أن يُغتاب في مجلسه أحدٌ. ولقد سمعته مراراً يُسأل عن بعض العُلماء والدعاة المخالفين له في المنهج، فلا يُجيب إلا بما يُرضي الله، مقدماً حسناً الظن والتماس العذر.

ولقد حضرتُ في مجلسه ذات يوم شاباً من طلَّاب العلم ! بذلُّ وُكْدَه في استدراجهُ الشَّيخ للوَقِيَّة بأحد العُلماء، ولكنَّ الشَّيخ خَيَّبَ مسعاه وأبى أن يَفْهُمَ إلَّا بالخير، وما زال الطالبُ ينافِشُ وَيُجَادِلُ حتى ضاقَ أهل المجلس به ذرعاً، والشيخ صابر عليه، يدفعُ قولَه بالتأني هي أحسن.

أما كرمُه وسخاؤه نفسه فالحديثُ عنهمَا ذو شُجُون، فقد كان الشَّيخ ذا يدٍ حانية، رَقِيقاً عَطوفاً، لا يُرُدُّ سائلاً، ولا يقصِّرُ في عون، ما قَدَرَ على ذلك.

تَرَاهُ إِذَا مَا جَئَتْهُ مَتَهِلًّا كَأَنَّكَ *** تُعْطِيهِ الَّذِي أَنْتَ سَائِلٌ

وأذكرُ أنني زُرتُه - أيام الدراسة الجامعية - مع عدد من زُملائي الأضِرَّاء، فرقَ لهم جداً، وأخذ يشجِّعُهم على تحصيل العلم ومُواصلة الدراسة، ويعزِّزُهم بمُصَابِّهم الذي ابتلاهُم الله به، وروى لهم عدداً من الأحاديث الشريفَة في فضيلة الصَّبر على فقد البصر، وما أعدَ الله للصَّابرين من أجر يوم الحساب، ولم يكتفِ الشَّيخ بهذا، بل أمسك بأيديهم ودخلَ بهم إلى الحُجَّة المجاورة، ثم لم يلبثوا أن عادوا، ولما خرجنا من بيتِ الشَّيخ علمْتُ أنه أعطى كلَّ واحدٍ منهم مبلغاً من المال؛ تَطَيِّباً لخاطرهم، ومساعدةً لهم.

وأما تواضعُه وإنكارُه ذاتَه، فشيءٌ دون وصفِه خَرْطُ القَتَاد، فقد بلَغَ مرتبةً من التواضع عاليَّة - مع الحفاظ على العزة والهيبة - متأسِّياً في ذلك برسول الله ﷺ، فتراه متَبَسِّطاً في الحديث مع ضيوفه وزواره، يصغي إليهم - ولو كانوا من العامة - ويوليهم من اهتمامه وعنايته ما يشعرُ معه كلُّ واحدٍ منهم أنه هو ربُّ المجلس، وكان من عادته المحببة التي يتَّأَلَّفُ بها قُلُوبُ العامة، أنه لا يَدْخُلُ بيته زائراً إلَّا رَحِبَ به بحرارة، وسأله عن اسمه ونسبه ومهنته ومن أَيِّ بلد هو، مع ما في ذلك من مشقة وإرهاق لشَّيخ يحبُّ نحو الثَّمانين، ولكنه كان يتَّقرَّبُ إلى الله بإدخاله السعادة إلى قلوب الناس.

ومن المواقف الدالة على تواضعه، وبغضه للشهرة والظهور: لما توفي المربيُّ الشَّيخ أحمد الشامي مُقتى الحنابلة بِدُوَّمة سنة 1414 هـ ، تدقَّقت جموعُ المشيَّعين من دمشق ودُوَّمة بالآلاف، وتجمَّعوا عند بيتِ الشَّيخ أحمد ينتظرونَ خروجَ الجنائزَة، وكانتُ فيما حضرَ فرأيت شيخنا الأرناؤوط بين الجموع مُتنحِياً جانباً يذكر الله تعالى، فأقبَلتُ عليه مُسْلِماً وبيقيتُ معه نتبادل بعضَ الأحاديث، وكان أحدُ المشايخ قد تولَّ تنظيمَ الجنائزَة، فكان يَصْبِحُ بالجموع يدعوهُم إلى التَّزامِ السنَّة في الجنائزَة إنفاذَا لوصيَّةِ المُتَوَفِّي، ثم طلبَ من العُلماء والمشايخ التقدُّمَ ليسيروا في مقدمة المشيَّعين، وكَرَّ النداءَ مرات، وبدأ المشايخ يتقدَّمون، وشيخنا لا يبرُّ مكانَه، فقلتُ له: ألا تتقدَّمَ يا شيخنا إلى الأمام؟! فأجابني: شيخي هو يُنادي أهلَ العلم والمشايخ، وأنا طالبُ علم لا عالم ! ثم قال: تعرَّفُ جامِع دُوَّمةِ الكبير الذي سيُصلَّى فيه على الشَّيخ؟ فقلتُ له: نعم، فأخذ بيدي، وقال: هلَّمَ بنا إليه قبل أن تَحولَ بيننا وبينه هذه الجُموع، ومَضَينا إليه سالكين بُنيَّاتِ الطريق، مُتَجَنِّبينِ الجموع الغَفِيرَةِ المتَّدَافِعةِ. ومن خصال شيخنا الحَمِيدَة عظيمٌ وفائه لأصحاب الأيدي البيضاء عليه، وحتى شيخه محمد صالح الفُرْفُور - الذي طردَه من حَلْقَتِه لقراءاته في كتاب شيخي الإسلام ابن تيمية وابن القِيم - فإنه كان يذكره بالخير دائمًا، ويدعو الله له بالرحمة والمغفرة، بل كثيراً ما كان يقول: لقد تعلَّمتُ من الشَّيخ صالح مَخافَةَ الله عَزَّ وجَلَّ.

وَفَاءً لِذَكْرِ شِيْخِهِ وَلِمَعْهَدِ الشُّرْعَى الَّذِي أَسَسَهُ وَهُوَ مَعَهَدُ الْفَتْحِ الإِسْلَامِيِّ: أَهْدَى - قُبَيلًا وَفَاتَهُ - جُزَءًا مِنْ مَكْتَبَتِهِ الْعَامِرَةِ الْغَنِيَّةِ [17 صُنْدوقًا] إِلَى مَكْتبَةِ الْمَعْهَدِ؛ لِتَكُونَ وَقْفًا عَلَى طَلَابِ الْعِلْمِ الشُّرْعَى، وَقَدْ خُتِّمَتِ الْكُتُبُ كُلُّهَا بِالْعَبَارَةِ التَّالِيَّةِ: (صَدَقَةٌ جَارِيَّةٌ لِطَلَابِ الْعِلْمِ، تَقْدِيمٌ: عَبْدُ الْقَادِرِ الْأَرْناؤْوَطُ، رَجَاءٌ دُعْوَةٌ صَالِحةٌ لَهُ وَلِزَوْجِهِ وَأَوْلَادِهِ).

وفاته وجنائزه:

فَجَرَ يَوْمُ الْجَمْعَةِ، الثَّالِثُ عَشَرُ مِنْ شَوَّالٍ، مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ 1425 هـ ، (الْرَّابِعُ عَشَرُ بِتَارِيخِ الْمُمْلَكَةِ؛ لَا خِتْلَافٌ رَؤْيَا الْهَلَالِ)، قَضَى اللَّهُ تَعَالَى قَضَاءَهُ الْحَقَّ بِوَفَاهَا شِيْخُنَا أَبِي مُحَمَّدٍ، وَهُوَ أَوْفَرُ مَا يَكُونُ نَشَاطًا وَصَحَّةً، عَنْ ثَمَانِ وَسَبْعِينَ سَنَةً قَضَاهَا فِي مَيَادِينِ الْعِلْمِ وَالْتَّعْلِيمِ، وَالنُّصْحِ وَالترَّبِيعَ، فَارْسَا مِنْ فُرْسَانَهَا غَيْرَ مُدَافِعٍ.

وَقَالُوا: إِلَمَامُ قَضَى نَحْبَهُ *** وَصَيْحَةٌ مَنْ قَدْ نَعَاهُ عَلَى
فَقْلُتُ: فَمَا وَاحِدٌ قد *** مَضِيَ وَلَكَنَّهُ أَمَّةٌ قد خَلَتْ

وَلَعِلَّ مِنْ بِشَارَاتِ الْخَيْرِ لِشِيْخِنَا أَنْ تَكُونَ وَفَاتُهُ عَقْبَ عِبَادَاتِ مِتَالِيَّةٍ، فَقَدْ اعْتَمَرَ الشَّيْخُ فِي شَعْبَانَ، ثُمَّ صَامَ رَمَضَانَ، ثُمَّ أَتَيَهُ بِصُومِ السَّبْتِ مِنْ شَوَّالٍ، وَكَانَ الْيَوْمُ الْسَّادِسُ مِنْهَا هُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ السَّابِقِ لِيَوْمِ وَفَاتَهُ، وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَحَدُ الْمُقْرَبِينَ مِنْهُ أَنَّهُ عِنْدَمَا أَفْطَرَ مَغْرِبَ الْخَمِيسِ قَالَ لِأُمِّ أَوْلَادِهِ: ((الْآنَ عَيَّدَنَا يَا أُمَّ أَحْمَدٍ))، أَوْ عَبَارَةٌ نَحْوَهَا، فَكَانَتْ وَفَاتُهُ فَجَرَ الْيَوْمُ التَّالِي، رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً.

وَفِي مَشَهَدِ مَهِيبٍ خَرَجَآلَافُ الْمُشَيْعِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْعَامَّةِ تُجَلِّلُهُمُ الْأَحْزَانُ إِلَى جَامِعِ الشَّيْخِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ التُّونِسِيِّ بِحَيِّ الْمَيْدَانِ؛ لِأَدَاءِ حَقِّ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ عَلَيْهِمْ، وَتَقدَّمَ وَلَدُهُ الْكَبِيرُ مُحَمَّدُ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ عَقْبَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَكَانَ أَلْقَى خَطِيبُ الْجَامِعِ فَضِيلَةُ شِيْخِ قَرَاءِ الشَّامِ مُحَمَّدُ كَرِيمٍ راجِحٍ خُطِيبَةً مُؤْثِرَةً بَكِيَ فِيهَا وَأَبْكَى، أَشَادَ فِيهَا بِمَنَاقِبِ فَقِيدِ الْعِلْمِ وَالدُّعْوَةِ، وَنَوَّهَ بِفَقْهِهِ وَفَضْلِهِ وَنُبُلِ أَخْلَاقِهِ.

ثُمَّ ظُورَيَ الشَّيْخُ فِي مَنْوَاهِ الْأَخِيرِ مِنْ دَارِ الدِّينِ فِي مَقَبْرَةِ الْحَقْلَةِ بِحَيِّ الْمَيْدَانِ، لِتُطَوَّى صَفَحَةٌ جَدِيدَةٌ مِنْ صَفَحَاتِ الْعِلْمِ وَالدُّعْوَةِ وَالإِرْشَادِ.

رَحْمَ اللَّهِ الشَّيْخَ رَحْمَةً وَاسِعَةً، وَجَعَلَ قَبْرَهُ رَوْضَةً مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، وَأَنْزَلَهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَالصَّدِيقَيْنِ، وَعَوَّضَ أَمْتَنَا خِيرًا، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا: إِنَّ لِلَّهِ مَا أَعْطَى، وَلِلَّهِ مَا أَخْذَ، وَكُلُّ شَيْءٍ عَنْهُ بِأَجْلٍ، وَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، وَلَا حُولَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

المصادر: